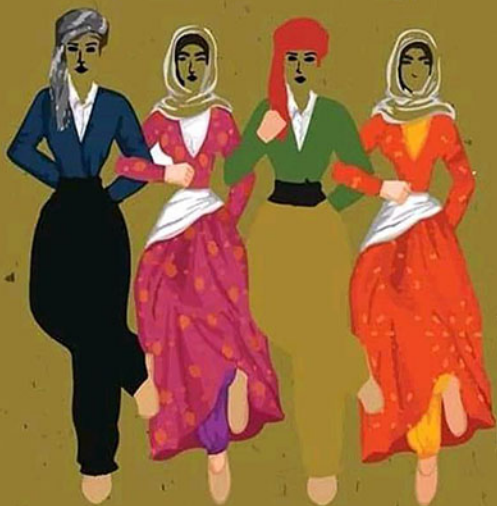




يوميات عربية

مروان علي

كيف تصبح كروياً في خمسة أيام؟



كيف تصبح كـردياً
في خمسة أيام؟

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٩، منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقدية شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Kaifa Tuspihu Kurdian Fi Khamsati Ayam by "Marwan Ali"

Copyright © 2019 by Almutawassit Books.

المؤلف: مروان علي / عنوان الكتاب: كيف تصبح كردياً في خمسة أيام؟

الطبعة الأولى: ٢٠١٩.

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-94-9

سلسلة يشرف عليها المركز العربي للأدب الجغرافي

تصدر بالتعاون بين:



دار السويدية للنشر والتوزيع

أبو ظبي، ص.ب: 44480 / الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 0097126447474 / فاكس: 0097126449797 / alrihla@gmail.com



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120 / 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبى / محلة جديد حسن باشا / ص.ب. 55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org



يوميات عربية

مروان علي

كيف تصبح كروياً في خمسة أيام؟



إلى أبي

أنا كردي
اللهم، لا أسألك رَدَّ القضاء،
ولكن، أسألك اللُّطْفَ فيه.

اليوم الأول

کردستان دیر الزور

ظَلَّ عَمِّي جَمِيلُو طَوَالَ حَيَاتِهِ الطَوِيلَةَ، تَسْعِينَ سَنَةً بِالتَّمَامِ وَالْكَمَالِ،
مَشْغُولًا بِأَسْعَارِ المَوَاشِي وَالقَمَحِ وَالشَّعِيرِ وَالتَّبْنِ، وَمَصْدَرًا لِلْمَعْلُومَاتِ
الْكَامِلَةِ عِنْدَ شِرَاءِ خُرُوفٍ أَوْ بَقْرَةٍ أَوْ عَنزَةٍ لِأَهَالِي كَرِصُورِ وَالقُرَى المَجَاوِرَةِ
(نِيف، كَفَرِ سَبِي، كَوْتِيَا، كَرْدِيوَان، مُوسِيَسَانَا، قُوشَانِي، بِيرَا بَازَن).

تَزَوَّجَ لِلْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ فِي السَّبْعِينَ، وَأَنْجَبَتْ زَوْجَتُهُ الجَدِيدَةَ بِنْتًا جَمِيلَةً
كَالقَمَرِ .. وَدُونَ تَرَدُّدِ أَسْمَائِهَا كَرْدِسْتَان، رَغْمَ أَنَّ زَوْجَتَهُ كَانَتْ تُفَضِّلُ أَنْ
تُسَمِّيَهَا بِدِيْعَةِ عَالِي أَسْمِهَا التِّي انْتَحَرَتْ حَرَقًا لِأَسْبَابِ مَجْهُولَةٍ. سَعَادَةٌ
عَمِّي لِأَحَدٍ يَسْتَطِيعُ وَصْفَهَا. جَاءَتْ كَرْدِسْتَان. رَكَضَتْ كَرْدِسْتَان. مَرَضَتْ
كَرْدِسْتَان. كَبُرَتْ كَرْدِسْتَان. ذَهَبَتْ كَرْدِسْتَان إِلَى المَدْرَسَةِ. كَتَبَتْ كَرْدِسْتَان
وِظَانْفَهَا. نَجَحَتْ كَرْدِسْتَان.

قَبْلَ أَنْ تَكْبِرَ كَرْدِسْتَان، كَانَ يَلْعَبُ مَعَهَا فِي شَوَارِعِ كَرِصُورِ التَّرَائِيَّةِ،
وَيَرِكُضُ خَلْفَ الكُرَّةِ التِّي تَلْعَبُ بِهَا، وَتَطْيِرُ مَعَ الهَوَاءِ حَتَّى أَطْرَافِ القَرْيَةِ،
أَوْ خَلْفَ دَرَجَاتِهَا المَلْوَنَةِ الجَمِيلَةِ.

قَالَ شَيْخَمُوسُ بَرَكَاتٍ لِعَمِّي: كَيْفَ ابْتَنَيْتَ اسْمَهَا كَرْدِسْتَان؟ لَا بَدَأَ أَنْ
تَتْرَكَ العُشَّ فِي سُوْقِ المَوَاشِي أَوَّلًا، وَثَانِيًا، لَا بَدَأَ أَنْ تَتَسَبَّبَ لِحِزْبِ كَرْدِيَّ،
وَثَالِثًا يَجِبُ أَنْ تَتَفَكَّرَ مَعْنَا.

قَالَ عَمِّي، قَبْلَ المَرْحُومِ مَعْمَرِ القَدَّافِي: مَنْ أَنْتُمْ؟

قال شيخموس بركات: نحن الشعب الكردي! كيف نُحرّر كردستان؟ لا يعقل أن يظلّ هذا الوطن الجميل (تخيّل عمّي جارتنا الشّابة في قميص النوم) تحت رحمة الاستعمار والإمبريالية والإقطاعية والرجعية والشيوعية والاشتراكية.

ردّ عليه عمّي بحزن شديد مفتعل: نعم نعم، وماذا علينا أن نفعل لُحرّر كردستان؟

تابع شيخموس بركات: كل واحد منّا يُقدّم ما يستطيع تقديمه، ويشارك حسب قدرته بدعّم الثورة. ونظر نحو الشمال، حيث الجبال الكردية البعيدة، وتابع:

لكن الخطوة الأولى هي أن نُحدّد حدود كردستان، تعرف جيّداً أن الفرنسيّين والإنكليز خربطوا الحدود، ولا بدّ لنا من إعادة رسم حدود المنطقة بعيداً عن خطط السيّدَيْن سايكس بيكو وخرائطهما الجهنميّة التي أعطت الجميع حقوقهم، إلا نحن الكرد، حرّمونا أولاد الشرموطة من حقناً. في المساء، كان عمّي يرسم خريطة كردستان، فهي تبدأ من ديار بكر مروراً بمهاباد وحتى الموصل، ومن ثمّ، تُكمل الخريطة طريقها إلى حلب، وتعود أدراجها إلى القامشلي مروراً بدير الزور والرّقة حتى ماردين. ثمّ تصل بأمان إلى ديار بكر.

احتياطاً رسم عمّي الخريطة مُستخدماً قلم الرصاص. وكان يُقدّم الحدود أو يُؤخّرها، ويضيف مُدناً وقرى حسب مزاجه! إذا كانت زوجته قد طبخت له البرغل ولحم الخروف، يضيف إليها مُدناً جديدة، وأحياناً تصل حتى حدود روسيا، أمّا إذا كان أحدهم لم يُسدّد له ديونه، أو أن زوجته أدارت

له ظهرها في الليل، أو أزعجه أحدُهم بكلمة، أو خسر في صفقة صغيرة، فإنه يحذف منها مُدناً وقرى حتى تصبح صغيرة، ولا تضمّ غير كرسور!

لكن شيخموس بركات الذي أدمن السياسة، وكان يتنقل من حزب كرديّ إلى آخر، ذلك كله من أجل الشعب الكرديّ حتى استقرّ في حزب الكادحين الكردي. هذا الحزب الذي يتحدّث عن بناء كردستان ديمقراطية شعبية اشتراكية عظمى في بياناته، ولكنه يشارك في احتفالات حزب البعث كلها، وفي كلماته التي يُلقبها يؤكد على أن سوريا قلب العروبة النابض، وحين يعود للبيت يتحدّث عن كردستان الكبرى! حتى إن زوجته فهيمة قالت له:

يا رجل، أصبحت مثل الدجاجة التي ستبيض! لماذا لا تستقرّ على موقف واحد؟

ردّ بهدوء مفتعل: السياسة فنّ الخداع والكذب، ولا مكان للأخلاق فيها، يا حبيبتي، هل تريدني منّي أمضي عمري في سجن تدمر أو سيدنايا؟

بعد وضع اللمسات الأخيرة على خريطة كردستان، انطلق عمّي نحو قرية علي فرّو المعروفة بمواقفها الكردستانية الحديدية، لعرض الخريطة على حجّي كردستان (واسمه حجّي لندن من شدّة تعلُّقه بهذه الإذاعة، ولا أحد يتذكّر اسمه الحقيقي جعفر) الذي لا يترك أيّ أمر يتعلّق بالأمن القومي الكردستاني إلا ويُسرف عليه. وقبل أن يصل عمّي إلى بيته، كانت دورية الأمن السياسيّ له بالمرصاد.

حاول عمّي أن يهرب، لكن كرشه منعه من ذلك خصوصاً أنه كان قد التهم طنجرة كاملة من البرغل، بمناسبة الانتهاء من وضع الحدود النهائية لدولة كردستان.

في مفرزة الأمن العسكري في القامشلي، وبعد الدولاب الأول، اعترف عمي بكل شيء، ووعد المساعد أبا عليّ بمبلغ من المال، وكبش، وتبكيّة سمّنة، إذا مشى له الأمر هذه المرّة، ولن يعود أبداً إلى مثل هذه الأمور التافهة مستقبلاً، وأنه سيظلّ وطنياً شريفاً مخلصاً، وسيزرع صور الأب القائد في كل مكان من بيته!. في الصالون وغرفة الضيوف، وحتى في المطبخ.

قال أبو علي: يا جميل، نحن في سوريا نقف مع حقوق الشعوب، وخاصة الشعب الكرديّ، ونحن مع دولة كردستان حرةً مستقلةً. لكن، أن تصل حدود هذه الدولة إلى دير الزور القضية بتصير صعبةً كثير، خصوصاً أن دير الزور قلب سورية النابض، وقتها بتطلع من أيدي الشغلة، وما يعرف كيف بدّي ظبّطلك ياها.

قال عمي جميلو:

يا سيدي، نحن رسمنا حدود كردستان بقلم الرصاص.

وأخرج من جيبه الممحاة، وقال:

تفضّل، ارسّم حدود كردستان على كيفك.

نيروز

في عيد النيروز، صفع أحدُ عناصر الأمن صبية كردية. هجم عليه شابٌ
كردِيّ من أصحاب الدَرَاجات النَّارِيّة، هجمت علينا دورية المخابرات.
هجمنا عليهم: طلابُ المدارس والنساء والأطفال. جاءت دورية أخرى.
ركضنا بعيداً بين حقول القمح في أطراف حلكو.

القيادات الكردية ركبت سيّاراتها، وهربت. وقتها أحببتُ أصحاب
الدَرَاجات النَّارِيّة، وكرهتُ القيادات!

عَلَم

في الصَّفِّ الثاني، وفي كتاب القراءة، تعلَّمتُ أولَ جملة: عَلَم "بلادي"
مرفوع. ومنذ ذلك الوقت، وأنا أبحث عن هذه "البلاد".

مدير الناحية

قرب الجامع الذي يتوسّط كرسور، نزل النقيب علاوي السطم من
سيارة الجيب تويوتا، وخاطبنا: أيها الشعب العربي العظيم!
لم نفهم شيئاً، فنحن لا نعرف لغة غير الكردية. صقّقنا بحرارة. وأمّا هو،
فهجم على الخميس (لحم الخروف المطبوخ مع إلبته فقط، وخبز الصاج).
ودون أن يغسل يديه، انطلق بسيارة الجيب نحو عامودا.
ركضنا نحن الأطفال خلف سيارة الجيب، بينما كان الكبار يشعرون
بالفخر من اهتمام القيادة بهم!

الأب القائد

صورة كبيرة للأب القائد عُكِّت على بناء كبير قرب المؤسسة العامّة
الاستهلاكية في القامشلي، حيث مفرق عامودا والحسكة.

في النهار، كانت رائحة البول تفوح من الصورة، خصوصاً في الصيف.
لم يبقَ أحد في الحارة الغربية إلا وتبول قريبا، أو عليها، بينما ظلَّ الأب
القائد يُلوِّح بيده للمتبولين بسعادة غامرة!

تمثال خائف

باتقرب من فرع المخابرات العسكرية وجامع زين العابدين وكافيتيريا الموعود والمصرف التجاري السوري ومحطة محروقات قديمة ومبنى البريد، وفي أهم مثنث في القامشلي يقف تمثال خائف لحافظ الأسد، كلما مر أحد قرينه يُخبي رأسه بين يديه، ويُغمض عينيه، كي لا يرى ما يحدث حوله.

اختفت صور حافظ وباسل وبشار وحسن نصر الله وشعارات الإصلاح والتحديث والعبارة الشهيرة "الأكراد في سورية مُكوّن أساسي وعريق من الشعب السوري" التي اقتُطفت من حوار لبشار الأسد مع قناة الجزيرة بعد انتفاضة القامشلي ٢٠٠٤.

اختفت دوريات الأمن وسيارات البيجو ستيشن والعبارة التي كنت تسمعهما في شوارع كثيرة (اغرف مع مين عم بتحكى ولأك). لم تعد تسمع حركة السيارات التي كانت تدخل يومياً، وبالعشرات إلى فرع الأمن العسكري وفرع أمن الدولة بعده بقليل أو فرع الأمن السياسي قبله.

ثمّة أعلام جديدة تُرفرف عالياً، وصورة جديدة تحتلّ واجهة المحلات والبيوت. أعلام كردية وصورة عبد الله أوجلان الزعيم الكردي المعتقل في إيجرالي والأب الروحي لحزب الاتحاد الديمقراطي PYD الذي يسيطر على القامشلي ومناطق شاسعة من محافظة الحسكة.

لم تتضح الصورة بعد، تمرّ دوريات الأسايش (الأمن الكردي التابع لحزب

الاتحاد الديمقراطي) قرب مطار القامشلي، حيث معقل المخابرات الجوية السورية، العنصر الذي يقف قرب الحاجز يردّ التحية بأحسن منها.

بين عامودا والقامشلي طريق إسفلتي قديم، مليء بالمطبات، على أطرافه تتناثر قرى كردية وقرى عربية كانت نموذجية بُنيت على عجل، في إطار الحزام العربي. حاجز ديموغرافي بين كردستان تركيا والمناطق الكردية في الجزيرة. تعرف ذلك من البيوت الإسمنتية المتشابهة وأعلام البعث وصور الرفيق القائد، التي بهتت بسبب طول الإهمال. نوافذ تطلّ على نوافذ، وأبواب مغلقة تماماً، وغرباء في كل مكان. كرد لا يجيدون من العربية غير اللهجة البدوية ويحبّون خبز الصاج والحميس، وبدؤوا يتحدثون الكردية بلكنة عربية، ويفضّلون التبغ الكرديّ المهرّب من ماردين.

هناك قلق وخوف وتوجّس. لا أحد يستطيع أن يتكهّن بالقادم. الصورة ليست واضحة أبداً. الواضح فقط أن التمثال الخائف في قلب القامشلي سيسقط قريباً. لا أحد يعرف كيف. ربّما خوفاً أو مللاً بعد أن سقطت التماثيل كلها أو بضربة من قبضة متظاهر كرديّ أو عربي لا فرق.

الحمار

رفع حسين حمي صوته ويده، كي يطرد الأولاد الذين تعلّقوا بعرفته التي كانت تصعد بصعوبة، لأنه بعد موت بغلته، اضطرّ إلى شراء حمار أبيض ضعيف ومنهك من كافاني هيمو.

لم يكن الحمار مدرّباً جيّداً. يحاول، لكن جسده الضعيف لا يساعده. رغم أن حسين حمي كان يقفز ويحاول أن يجرّ العربة الفارغة معه. وكلّما رآه خليل حجّي أسعد يضحك.

ما رأيك أن تجرّ العربة وحدك؟ حماران يجران عربة صغيرة وفارغة، ثمّ يسعل ويمسح دموعه من شدّة الضحك.

وحين تصل العربة بسلام إلى أطراف القرية يقفز حسين حمي إلى مكانه (حيث يضع كالعادة مخدّة من ريش الدجاج، ليجلس عليها) بينما تندحرج العربة من تلقاء نفسها، وبهدوء نحو باب البيت قرب طريق قوشانة.

ويفرح إذا لم يره أحد من الجيران وهو يجرّ العربة والحمار معاً.

وعندما مات الحمار.

حزن حسين حمي، لأن عمّي جميلو أخبره أن الحكومة قرّرت إرسال الحمير إلى الجبهة

للسَّير أمام الجنود في حقول الأڤغام، ولن يجد حماراً واحداً في القرى
المجاورة كلها.

كان ذلك في نهاية سنة ١٩٦٦ وبعد وصول جمال عبد الناصر إلى
القامشلي بسنوات قليلة.

محمد منصوره و "كردستان الصومال"

ظلّ محمد منصوره، لأربعة عقود من الزمن، رئيساً لمحافظة الحسكة، بكل ما تحملهُ كلمة "رئيس" من معانٍ.

عَيَّه حافظ الأسد رئيساً لفرع المخابرات العسكرية في القامشلي، لكن سلطاته كانت تمتدّ على مساحة المحافظة كاملة، وأحياناً إلى المحافظات الأخرى، ولا سيّما حينما يتعلّق الأمر بالأمن الوطني، أو القومي، أو بالإمبريالية والاستعمار، والمؤامرات على النظام الوطني والتقدّم في سوريا.

عُرِف عن محمد منصوره الهدوء والتروي في اتخاذ القرارات، ولم يحدث أن صفع مواطناً أو أهانه. كان يكفي أن يشير بحاجبه لمرافقه علي - وهذا الـ "علي" هو غير الـ "علي" الموجود في اسمي - حتّى يحمل الشخص على كتفه أو يجره من شعره ورموشه أو "قشاطه"، ويركض به نحو غرفة التحقيق، أو "جهنّم الحمرا" حسب الجملة التي قالها محمد منصوره حرفياً لعناصره:

وَلَاة، ستذهبون جميعاً إلى الجنّة، لأنكم جنود الرفيق القائد حافظ الأسد، ولأن في الكون جهنماً واحدة، هي الموجودة عندنا في الفرع.

وقتها صقّ العناصر بحرارة للرفيق القائد الذي يفكّر حتّى في جنوده ومستقبلهم في الدنيا، والآخرة أيضاً.

كان المواطن الذي يخرج حيّاً من جهنّم الحمرا المنصورية لا يفتح فمه

بعد ذلك حتّى عند طبيب الأسنان. وإذا حدثت معجزة وتحدّث بعد خروجه بسنوات، فهو لا يتحدّث إلا عن طيبة محمّد منصوره وإنسانيته ونقائه وشفافيته، وكيف أنه علّق في مكتبه لوحة كبيرة لحافظ الأسد وهو يُلوح للجنود العائدين من حرب تشرين التحريية، وخلفه شمس كبيرة. رسمها المغني والرّسام المعروف جان كارات!

وذات مرّة، تجرّأ حزب كرديّ سوريّ، ونشر مقالة في جريدة الحزب المركزيّة، كتبها الأمين العامّ للحزب الديمقراطيّ الاشتراكيّ التقدّميّ الوطنيّ الكرديّ أحد أقدم وأكبر الأحزاب الكرديّة. تحدّث فيها عن إنجازات الحركة التصحيحية التي أعادت الكرامة للمواطن السّوريّ دون تمييز بين العربيّ والكرديّ والسّرانيّ والأرمنيّ والشركسيّ، وأطاحت بالمؤامرات الإمبريالية والصّهيونية على سوريا الأسد قلعة الصمود والتّصديّ. وحزّت الأرض والإنسان والحيوان. (لأن الحيوانات السّورية كانت تعاني مثل البشر من جرائم الاستعمار التي نهبت ثروات الوطن. وفي المقدّمة الثروة الحيوانية).

وفي نهاية المقالة، أكّد الأمين العامّ أن الشعب الكرديّ في "كرديستان سوريا" هو جزء من الشعب السّوريّ العظيم، وأنه يقف مع القيادة العظيمة التي لا تنام وهي تقود المعركة لتحرير فلسطين والجولان وجنوب لبنان.

بعد انتشار الجريدة التي تُوزّع يدويّاً، أرسل محمّد منصوره سائقه الكرديّ كنعان في طلب الأمين العامّ الذي حضر بسرعة، وركض إلى مكتب أبو جاسم (اسم الدّلع لمحمّد منصوره):

خير، سيدنا؟ إن شاء الله ما في شي؟

لا والله، ما في شي، قريّد، اشتقت لك، وقلت بدّي قزّع متّه معك.
بعدين شو هاي المقالة المطعوجة؟

أَيّ مقالة، سيدنا؟

هاي المقالة، سوريا القلعة التي تحطم فوقها المؤامرات!

لاحظ الأمين العامّ وجود الجريدة على الطاولة.

ما عجبتكم سيدي؟ الله وكيلك، أنا والمكتب السياسي واللجنة المركزية وقسم كبير من القاعدة الشعبية لحزنا كتبناها. ومو بالحبر، بل بدمنا.

هي فعلاً حلوة، بس لولا هالكلمة "كردستان سوريا". شو قصدكم يا
وَل؟

ما قصدنا شي سيدي، بس كتبنا هيك. مشان الناس تعرف أن حزنا
حزب كرديّ، لأنه الله وكيلك القاعدة الشعبية عم تناقص حتى أنا خايف
ما يبقى أحد في الحزب غيري. يرضيكم أن يصير فينا هذا الشي سيدي،
وتبهدل بعد خمسين سنة نضال؟

لا والله، ما برضى أنا، بس أوعى مرّة ثانية تجيب سيرة "كردستان سوريا"،
قَسماً بشرفي، بنزلك لتحت، مع أنك بتعرف قديش بحبك. ولك عمي
حط "كردستان العراق"، "كردستان تركيا"، "كردستان الاتحاد السوفياتي"،
"كردستان الصومال". العمى شو ما في غير "كردستان سوريا"؟

لينين

أول صورة للرفيق العظيم لينين (كنّا نلفظ اسمه: ليلين). رأيتها في احتفال لخمسة بكداشيّين في قرية علي فرو. وكنتُ في العاشرة من عمري، وقتها شعرتُ بالخبث والمكر في عينيه.

وبعد أن كبرتُ، أقنعتُ نفسي بأنني قد "ظلمتُ" هذا الرفيق الذي أمضى عمره في مقارعة الرأسمالية. وأنا بطبعي أجد مكاني هناك مع الضعفاء والمسحوقين الذين أطلق عليهم ليلين "البروليتاريا الرّثة".

وحيث كبرتُ أكثر، وصرتُ في الجامعة، قرأتُ مختارات الرفيق العظيم لينين كلها التي صدرت عن دار التّقدّم في موسكو، وكنتُ اشتريتها بمبلغ تافه من مكتبة دار الفجر خلف الفندق السّياحيّ في حلب. اكتشفتُ أن هذا الرجل لا تربطني به غير هذه المختارات، ثمّ تخلّصتُ منها، إذ أهديتها لصديق انتسب للحزب الشّيوعيّ السّوريّ مصادفة حين أحبّ أرملة تكبره بسنوات كثيرة، أو بالأصحّ أحبّ مؤخّرتها المكتنزة، وهي، بالمصادفة أيضاً، شيوعية بكداشية، وقد أخبرني، بكثير من الاضطراب، أن الوصول إلى مبتغاه مع هذه الرفيقة، يحتاج إلى هذا النوع من الثقافة.

علكة كردستان

كانت بقاليّة عرتو أشهر بقاليّة في الحارة الغربية (أهمّ حارات القامشلي بعد هليليكي وقدورك طبعاً).

يجلس عرتو، بوجود كرشه الضخم، في قلب الدكان. لا يفعل شيئاً سوى أكل البزر، وحين ينتهي من البزر يبلّس بالبسكويت المحشي، ويبغّب كازوز السينالكو، وما إن ينتهي منها حتّى يبدأ بتقشير برتقالة، وحين يلتهمها دفعة واحدة. يبدأ بالدعاء على أولاده العشرة، وليس لهم، لأنهم لا ينتبهون لباب رزقهم الوحيد خصوصاً بعد أن كثرت محلات السمانة في الحارة الغربية. وكان يقول لهم:

- شوفوا أولاد طيرو، وتعلّموا منهم. سمعتُ أن واحداً منهم سافر إلى قبرص، ومن هناك إلى أمستردام، واشترى نصفها بالتمام والكمال، عدّاً عن البيوت والشقق والدكاكين والسّيّارات. هنا يتذكّر عرتو أيام العرّ حين كان الكبار والصغار يقفون صباحاً في رتل عسكري طويل أمام الدكان ينتظرونه، ويأتي هو بهدوء وشموخ، وفي يده المفتاح. يتذكّر جاره الشرطي الذي كان الجميع يخافون منه، وهو يخاف منه، لأن حسابه في الدفتر وصل إلى ٢٠٠٠ ليرة، لم يسدّد منها ليرة واحدة حتّى إنه كان يتحاشى المرور أمام دكانه. يتذكّر شبابه حين كان مشهوراً في القامشلي أكثر من سعيد يوسف وصلاح رسول وحرزي وشفيقو. يتذكّر اليوم الأسود الذي قرّر فيه الزواج من ابنة عمّه سعدة التي أنجبت له فصيحاً بعد سنة، ومن ثمّ أصبحت

تلد ولداً كل تسعة أشهر دون زيادة يوم، حتى أصبح لديه عشرة ذكور
وثمانى إناث. يتذكر كيف كانت السيّارات والدراجات النارية المتّجهة من
الغامشلي إلى كرسور وعمبارة ونيف وكرباوي وعاكولة وتوبز وقوشاني وبيرا
بازن وكيستك وكردى وان وموسيساننا تتجمّع أمام الدكان، وتتكدّس الأوراق
النقدية الورقية في درج الطاولة أمامه مباشرة. يتذكر صناديق البندورة
والخيار ورائحة النعناع والبقدونس والفليفلة الخضراء والحمراء وأكياس
البطاطا يتذكر اللبن الكرديّ والعربي ورائحة العسل والسمنة البلدية. يتذكر
عرتو ذلك كله دفعة واحدة وهو ينظر بحسرة نحو البقاليّة الجديدة بقاليّة
البيشمركة التي لا تتعد سوى أمتار قليلة عنه، ولا يجلس صاحبها - رغم
أن أولاده الخمسة وزوجته يعاونونه دون كلل - من كثرة الزبائن حتى يظنّ
تغريب أنها ليست بقاليّة، بل مؤسسة حكومية، حيث يصفّ الناس
رجالاً ونساءً وأطفالاً في طوابير طويلة صباحاً بانتظار حصّتهم من اللبن.

ضُرّ عرتو الضخم يفكر ليلاً نهاراً في تسديد الضربة القاضية إلى
بيشمركة وبقاليّته، ولم ينفع له الدعاء عليه كل صلاة صبح منذ سنة:

- نُيَمِّم، خذد من الحارة الغربية هو وبقاليّته من الدنيا الزائلة إلى دنيا
حقّ. يا أرحم الراحمين.

ويكتر هذا الدعاء مئة مرّة على عدد حبات المسبحة الطويلة السوداء
في يده.

ويحرمه. صاح: وجدتها.

يقفّر من فراشه. قبل صلاة الصبح بساعة تقريباً، حمل المفتاح، وركض
نحو الدكان. تامل عليه العلكة الملونة الجديدة، واحتضنها، وسالت
جميعه: ثلاثة خطوط ملونة بألوان زاهية. خط أخضر وخط أحمر وبينهما

خطاً أصفر. تأكد ثانية من الألوان، خضراء وحمراء وصفراء. بكى من الفرح. نعم، ألوان عَلم كردستان هذه هي القبلة الذريّة التي ستدمّر البقاليّة على رأس البيشمركة وأولاده وزبائنه. ترك الأطفال مدارسهم والنساء البيوت والمطابخ والرجال الأعمال، وركضوا نحو بقاليّة عرتو لشراء علكة كردستان، وخلال ساعات، كانت البقاليّة فارغة من كل شيء، من الشاي والرّزّ والقهوة والخضار والفواكه والمعلّبات والسمنة والزيت. ظلّ البيشمركة وحيداً مع زوجته وأولاده والذباب في الدكّان، وتحول عرتو إلى بطل قومي، ومات البيشمركة بجلطة، لم يقل سوى جملة واحدة: علكة كردستان.

عروبة

في أول يوم ذهبتُ للمدرسة، التفتُ إلى أخي راكان الذي كان يجلس خلفي. وقلتُ له بالكردية: أنا جوعان، متى سنعود للبيت؟

ولم أر بعدها شيئاً، صفقة كبيرة كجبل، وقوية كانفجار نووي.

إحكي عَرَبِي وُلُكُ ..

بكى أخي أيضاً، بكت الطاولة، بكت أمي، بكت الحجارة البعيدة.

وحده أبي، أخذني في حضنه بعد أن أخبرته بالحكاية، أشعل لفافة تبغ، وقال:

سيأتي يوم، ويتعلم أطفالنا بلغتهم في المدارس، وفي درس الموسيقى ستحفظون أغنيات محمد شيخو، وستستبدلون بقصائد سليمان العيسى قصائد جكرخوين.

اليوم الثاني شيركو

كانت زوجة عمّي وحيدة في الصالون، تُلملم بقايا عظام الدجاجة التي هجم عليها عمّي، ثمّ شرب إبريقاً من اللبن الكرديّ، ومسح شاربه بيده، وأشعل سيجارته، وخرج.

في هذه اللحظة، دخل شيركو. وصرخ: أّز بريجي مه (أنا جوعان).

ردّت زوجة عمّي (أمّه الثانية) : قُزّل قُرطي بخه.

(روح ترقنب).

التفت شيركو حوله، ورأى من خلال باب غرفة الضيوف والعظام المرمية في الصالون أن عمّي التهم الدجاجة كاملة. وهو الآن بالتأكيد يدخّن سيجارته مع حسينو الذي كان منهمكاً بتصليح سيّارته التي تعطلت أمام بيت أموكي.

ركل شيركو إبريق الشاي والراديو الذي يحبه عمّي أكثر من أولاده والباب وكلبه (زمان) الذي حاول أن يلتصق به. ركض الكلب، وخاف أن يعضّه شيركو.

بكت أمّه الثانية، وصرخت في وجهه: قرمجيووووووو (مقصوف العمر)
خودي رحي ته بستين (الله يأخذ روحك).

سمع عمي صراخ زوجته، ركض حافياً، رآه شيركو، قفز من النافذة،
وهرب نحو أطراف القرية.

لَقَمَ عمي مسدّسه (ستندر بلجيكي ٩). وأطلق رصاصة في الهواء.
ركض شيركو أكثر.

أطلق عمي رصاصة ثانية.

صرخت زوجة عمي: منبطحاً!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

ورمى شيركو بنفسه بين حقول القمح.

وهرب منبطحاً حتّى وصل إلى القامشلي.

في الصَّف السابع، شاهدتُ عادل يازجي يتحدّث عن المخرج
التركي يلماز غوناي وفيلمه (الطريق) الذي أنجزه وهو في السجن.
من يومها أحببتُ السينما، وكنتُ أستمتع بسندويشة الفلافل وزجاجة
سينالكو كولا المنعشة، وأنا أشاهد أفلام سميرة توفيق وصباح ونجلاء
فتحي.
وكانت سهير رمزي نجمتي المفضّلة، مشغوفاً باكتناز ردفيها وأنا في
سنّ المراهقة.

أول فيلم فكّرتُ في إخراجه كان من بطولة ابن عمّي شيركو المشاكس،
والذي كان يضرني بسبب وبلا سبب.

أسندتُ إليه دور شابّ أزعر يضرب الأطفال
بينما لعبتُ دور الشرطيّ.

الشرطيّ: لماذا تضرب الأطفال؟

شيركو: أنا لا أحبّ الأطفال.

الشرطيّ: لماذا، يا ابن الشرموطة؟

شيركو: أنت ابن الشرموطة.

وانهال عليه بالضرب وهو يتكؤم على الأرض ويصرخ : دَخَيْلَكَ، يا
سَيِّدِي.

برافو نتصبح مشهوراً مثل حسني البورطان.

ظلّ شيركو يضطهدني بسبب وبلا سبب أيضاً رغم محاولاتني الإفلات
من عقوباته، لم أكن جباناً، كنتُ أدافع عن نفسي بلا هوادة، وعملتُ
المستحيل كي أصبح قوياً. شربتُ البيض النيء، وأكلتُ لحم القنفذ،
وحتى الأفاعي. قال شيركو:

اقطعُ شبراً من طرف الرأس وشبراً من الطرف الآخر.

واشترتُ كتاب "تعلم الجودو والكاراتيه"، وحضرت أفلام بروسلي
كلها في سينما شهرزاد الشتوي والصيفي

دون جدوى.

وجدتُ حلاً.

أن أنسى كلمة لا حين أكون مع شيركو.

اشترى عمّي جميلو سيّارة شيفروليه موديل ١٩٥٥. المشكلة الكبيرة كانت في إيجاد شوفير لها. زوجة عمّي الأولى تريد أن يكون ابنها البكر شوفيراً. يعرّم حاله، ويُخرج يده من النافذة حين تسير السيّارة في شوارع كرصور.

أمّا زوجة عمّي الثانية - أو الصغيرة كما تقول أمّي - فلأنها أحلى تستطيع بسهولة إقناع عمّي الذي يُنقذ طلباتها كلها حين يدسّ جسده في فراشها، وما إن تدير ظهرها له حتّى يعرف عمّي أن لديها طلباً لا بدّ من تنفيذه.

وهكذا صار شيركو شوفيراً، يستيقظ باكراً، وتستيقظ القرية معه على صوت محرك السيّارة.

في البداية. يخرج شيركو من البيت وسيجارتته في فمه، يفتح باب السيّارة، يضع شريطاً لفارس بافي فراس في المسجّلة. يفتح غطاء المحرك. يتأمّله دون أن يفهم شيئاً.

يحاول جاهداً مرّات ومرّات. المحرك لا يدور. ولا يقول أخ، يا راسي. هناك تبدأ " أمّ المعارك " في كرصور. نجتمع حول السيّارة. أنا وسيفو وحسينو وفيروشاه وأحمدكي ولقمانو في انتظار المعلم زبدو،

ظَلَّ شِيرِكُو يَصْرَّ عَلَى أَنْ يَلْعَبَ قَائِداً لِفَرِيقِنَا. يُشْعِلُ سِيْجَارَتَهُ، وَيَضْعُهَا
بِشْكَلِ مَائِلٍ فِي زَاوِيَةِ فَمِهِ:

مِرْوَانَ، اِرْكَضْ، أَنْتَ الْحَارِسُ.

شَفِيقُ، أَنْتَ لِلْوَسْطِ.

حَسَنُ، أَنْتَ لِلدِّفَاعِ.

مَاجِدُ، أَنْتَ قَلْبَ الْهَجُومِ.

وَأَنَا (يَصْرُخُ فِينَا):

الْهَدَافُ، رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَسْجَلْ هَدِفاً فِي حَيَاتِهِ إِلَّا فِي مِرْمَانَا. وَقْتَهَا انْزَعَجَ
مِنَ اللَّاعِبِينَ، وَسَدَّدَ كُرَةً قَوِيَّةً نَحْوَ الْمِرْمَى. كَانَتْ كَالصَّارُوخِ. وَحِينَ قَفَزْتُ
فِي الْهَوَاءِ،

وَجَدْتُ فِي يَدِي حِذَاءَ شِيرِكُو (أَدِيدَاسَ أَبُو رِيحَةَ)، أَمَّا الْكُرَةُ، فَاسْتَقَرَّتْ
فِي الشُّبَاكِ.

أول درس في " النقد والنقد الذاتي " تعلّمته من شيركو .. خسر فريقنا مع فريق علي فرو بخمسة أهداف،

جمعنا شيركو خلف التّل، كي لا يرانا أحد.

أشعل شيركو نصف سيجارته الباقية (للتوفير كان يدخن السيجارة على دفعتين):

لماذا خسرنا؟

أنا كنتُ السبب، سأعتزل في الربيع القادم، ولكن، بعد أن أثار لكرامتنا، أقسم بحليب أمي، سأكسر ساق شريفو الذي سجّل أول هدف في مرمانا. بسيطة، يا شريفو، يا أخو الشرموطة، إن لم أجعلك تعرج مثل دجاجة أمي.

في الصّف السابع، غادرنا كرسور إلى القامشلي. بيت عمّي جميلو في
الهلالية قرب قصر وحيد وأصفر، يطلّ على القامشلي. كنّا نشرب الشاي،
وندخّن سرّاً حين يكون عمّي في سوق المواشي.

أما شيركو، فكان يُخرج منظاراً ألمانياً قديماً.

يحلف شيركو بحليب أمّه أنه منظار هتلر، يراقب شرفات الآخرين
البعيدة، لعلّه يرى بنتاً أو امرأة نصف عارية.

وبعد أن يضع المنظار جانباً، يحكي لي نصف ساعة عمّا رآه. حتّى إنه
كان يُكرّر الحوار الذي يدور في الشرفة البعيدة بين الرجل وزوجته التي
تلبس دوماً تنورة قصيرة جداً أو قميص نوم شفافاً، قبل أن يُنهي كلامه
"وضع يده بين فخذَيْها"، ويُطلق آآآآآآآآ آخ طويلة، تصل إلى كرسور.

اليوم الثالث كرصور وضواحيها

المعجزة

تُغني وردة:

أنا عايرة معجزة، أسمع الأُغنية بعيني، وأنا أمسح الطاولة. تجلس برفقة
أسرتها بين أشجار الصنوبر والغار، حيث المتنزه الأكثر شهرة في القامشلي
(البلودان).

مهمتي مسح الكراسي والطاولات، ومهمة الزبائن التهام الفواكه والبوظة
الفاخرة بأنواعها كلها.

نظرت إليّ بخجل. رأيتُ رافة ما في عينيها، قالت أمها:

امسح الطاولة جيداً، انظر إلى الغبار هنا. هات كاسات نظيفة.

تُغني وردة:

عايرة معجزة.

وأنا الذي أحتاج إلى معجزة، لأنني اشتقتُ إلى أخي راكان وأختي
عيشانة وأمّي وأبي البعيد الذي يحمل أكياس القمح على ظهره في هذا
الصيف الفطيع، كي نستطيع شراء الدواء لأخي المريض، بينما جازنا
مشغول بالتهام البوظة والبطيخ، وهو يسحب نفساً طويلاً من سيجارته
الوينستون.

تُعْنِي وَرْدَةَ عَايِرَةَ مَعْجَرَةَ.

أَرْفَعُ رَأْسِي، أَنْظُرُ إِلَى سَمَاءِ قَامِشَلِي الزَّرْقَاءِ وَالْبَعِيدَةِ.

دجاجة منتوفة تنظر إليّ

تقف المرأة الخمسينية قرب دجاجة منتوفة الريش في كيس من النايلون الشّفاف. السيّارات تمرّ قربها والمشاة. رائحة الديزل تتجول بحُرّيّة حول المرأة الجالسة قرب دجاجتها (كما لو أنها طفقتها). بينما طلعت حرب يقف تحت شمس أيلول الحارقة. قطرات من العرق البارد على جبهته.

تُخرج المرأة سيجارة، وتبحث حولها عن علبة الكبريت، وتجدها أخيراً في يدها. تضحك وتنظر نحو طلعت حرب.

أقف في انتظار التاكسي. صديقي ينتظرنني في الحسين. أتأمّل الدجاجة. أرى العين اليسرى من خلال الكيس الشّفاف. أتأمّل قفطان المرأة الخمسينية. قفطان كرديّ. كيف وصل إلى هذه البلاد عابراً الجبال والبحار وصحراء سيناء؟

لو أن المرأة الخمسينية تعرف الكردية. أريد أن أجلس قربها، وأدخّن معها سيجارة، وأضع رأسي على ركبتيها، وأخاطب الدجاجة: يا شقيقتي، تعالي، نظير عالياً.

قدورك

حين حضر عنصر أمن الدولة إلى طاولتي، كنتُ بصحبة خالي عبد
المجيد في مطعم دمشق في قلب القامشلي. اندهش من زجاجة العرق
(ريّان)، وأنا نصف سكران، وأُغنيّ "عيشانة علي" لمحمّد عارف جزراوي.
تفضّل.

جلس، وصبّ لنفسه كأساً، بينما تقدّم الجرسون (عرف فوراً أنه من
قسم التحقيق في الفرع) بخطوات بطيئة إلينا:
فروجة عالّفحم مع المقبلات، وكمان شوية تلج، وجدّد المقبلات،
وكاسات جديدة.

لم يُصدّق أنني أشرب العرق، وظنّ أنها محاولة للتهرّب من التهمة.
كتب أحدهم تقريراً، وقال بالحرف الواحد: مروان علي له ميول إسلامية،
وفرض الحجاب على زوجته (لم أكن متزوّجاً)، ويتعاطف مع إخوان
الشياطين (المسلمين).

لذلك حقّق معي بطريقة حديثة تماماً، تتناسب مع عصر حافظ الأسد
(نعم للتقدّم والاشتراكية).

س- عدّد أنواع العرق التي تعرفها، والتي لا تعرفها؟

ج- الرّتان، وهو الأفضل بالنسبة إليّ، البطة، وتوما محجّر لبناني مستورد،
ومثلت خصوصي، لم أجزيه بعد،

وهناك عرق تركي (راكي غير متوقّف حالياً).

س- عدّد أنواع المشروبات الكحولية الأخرى.

ج- الويسكي، وأفضله الإسكوتلندي ريد ليل، وبلاك ليل وهو فاخر
للأغنياء والأطباء والبرجوازيين، ووطني مغشوش تافه، بس طيب.

الفودكا، ومنه الروسي والبولوني والتركي والوطني .. كمان مغشوش.

البرندي، الوطني سيّ جداً مثل الكاز، جنّ، الإمبيت (النيذ)، ومنه
الأحمر الذي يُشرب بكثرة في الشتاء،

والأبيض في الصيف أو مع وجبات السمك والجمبري والسلطعون
البحري.

والبيرة طبعاً، ولها أنواع كثيرة، وشخصياً أفضل البيرة السورّيّة لدعم
الصناعة الوطنية.

بعد انتهاء التحقيق، طلبتُ زجاجة عرق أخرى وكيلو كباب وسلطة
أرمنية.

وانخرط العنصر الأمني في البكاء بعد أن تذكّر حبيبته التي تزوّجت من
سعودي يكبرها بخمسين سنة تماماً.

اشتراكية

كان رئيس الجمعية الفلاحية في قريتنا "عضوا بارزاً" في الحزب الشيوعي السوري جناح خالد بكداش، ودأب على سرقة المحصول من الفلاحين، لأنه كان يعتقد أن الاشتراكية تعني أنه شريك في محاصيلنا.

القامشلي

نزلنا من القطار، كانت هذه المرّة الأولى التي أرى فيها قطاراً. قبل ذلك، كنّا نرى القطار التّركيّ في الطرف الآخر من الحدود، يسير بهدوء، ينظر نحو القرى البعيدة في سهل ماردين، كري موزان، بريفاء، سيمتك، تعلقكي، عمبارة. ركبنا من محطة ملا سباط قرب كرابوي (أبو راسين في دفاتر محمّد طلب هلال ورفاقه)، التصقتُ بالنافذة، أنظر إلى أشجار التوت، وهي تُظللّ دمخيا، وإلى أسراب الحمام البيضاء فوق كنيستها الصغيرة. لاح لنا من بعيد مطار القامشلي، وثمّة طائرة شراعية ترتفع وتخفض فوق حقول القمح التي تلفّ خصر القامشلي. في محطة العنتريّة نزلنا من القطار أنا وعمّي جميلو وأمّي وأبي، ومعنا حقيبة صغيرة. لا أعرف لماذا جننا إلى القامشلي، ولم أكن أريد أن أعرف. يقف شرطي قرب باب المحطة يفتّش القادمين من حمص وحلب والشام، ولا يتردّد في مصادرة القهوة (بن نجّار اللّبنانيّ المشهور) ودخان المارلبورو والفايسروي.

قال عمّي: سننتظر الحافلة.

جلسنا على الرصيف، أشعل أبي سيجارته كالعادة، أضواء القامشلي جميلة في هذا المساء الخريفيّ العذب، والطريق أمامنا طويل حتّى الهلالية. نمتُ في حضن أمّي، وحين استيقظتُ رأيتُ جدّتي كوجري تُعطيني ببطانيّة ملوّنة، ثمّ فرشتُ سجّادتها، بينما كان صوت المؤذّن يأتي حزيناً، ومن بعيد: الله أكبر.

حلب

حين رأيتها حملتُ قلبي في يدي، وركضتُ خلفها بينما كانت تمشي
بهدوء. تعبتُ من الحُبِّ والركض، اختبأتُ خلف أشجار الزيزفون وأجنحة
العصافير والغيوم وأزهار النهار، سمعتُ وَقَعَ حوافر خيول بعيدة وصليل
سيوف، وحكايات عشق تتطاير في الهواء.

فتحتُ عيني، لم أجد شيئاً. كنتُ جالساً على كرسي خشبي في
الحديقة العامّة في حلب، وعطر قديم يملأ المكان لامرأة مرّت من هنا،
متى؟ لا أعرف.

كرصور

احترف جدّي نايفكو القمار والليالي الحمراء، وبدّد ثروته كلها على النساء من حلب حتّى بيروت واسطنبول، ولكنه ظلّ حتّى اللحظة الأخيرة من حياته يحبّ صبحية أم حواس، ويُقبلها حين يعود من زيارة عشيقته في ساحة القرية في كرسور قرب الجامع وأمام الناس، ويقول : اشتقت لك أم حواس، ويحملها بين يديه، ويركض نحو البيت.

مات جدّي قبل سنة. ماتت جدّتي قبل شهور قليلة. وقبل أيام، مات عمّي جميلو، الذي كان يمشي في شوارع كرسور كملك حقيقي، وخلفه تسير زوجته حليلة التي جاء بها من ماردين، وتزوج عليها بعد شهر.

مات عمّي جميلو، وطلب أن يُدفن بالقرب من شقيقه نايفكو، قره تماماً، كي لا يكون وحيداً في وحشة القبر.

المغني

فجأة ظهر فارس بافي فراس. وتحوّل بين ليلة وضحاها إلى ملك الأُغنية
الشبابية ومُحطّم قلوب العشاق الصغار في عاكولي، كرابوي، قدوربك،
هليلكي، تمويا، قوشاني حلكو.

كل أسبوع شريط كاسيت جديد، بأسماء حزينة تشبه أُغنيات الوداع
في الأفلام الهندية "نزهة" "كنتُ وحيداً" "رأيتُك من النافذة" "لا تودّعيني"
"كيف أحبّ غيرك" "صغيرتي وحبّيتي".

الوحيد الذي احتفظ بعرشه هو سعيد يوسف أمير البرق بلا منازع. أمّا
الآخرون، فقد رحلوا، ولم يعد يتذكّرهم أحد.

هاجر صلاحو إلى ألمانيا، وجوان حاجو إلى النرويج، ومروان صبري
تحوّل فناناً للآبوجيين بعد أُغنيته المشهورة "كروانو".

وأصبحت قرينته كرابوي مزاراً للعشاق.

وكنتُ إذا ذهبتُ إلى محلات بيع الكاسيت والأشرطة، وسألتهم عن
الكاسيت الجديد لفارس بافي فراس يقولون لك:

أي كاسيت تريد: القديم أم الجديد؟

والقديم يعني الكاسيت الذي ظهر قبل أسبوع، والجديد الذي نزل
إلى الأسواق قبل ساعات.

صورة شخصية

حين وصلنا إلى السوق، كانت المحلات مغلقة تماماً، ربح باردة
وأكياس بلاستيكية رقيقة وفارغة تطير في الهواء.

سزنا بين المحلات المغلقة، والشوارع الفرعية الضيقة حتى وصلنا إلى
مقهى صغير تحت عيادة الدكتور حسن مهوس، مقابل مبنى البلدية.

رائحة الشاي الطازج والبخار والقهوة تملأ المكان.

سحب كرسيين، وجلسنا.

قال أبي:

سندهب إلى المصوّر خاجيك. في السنة الماضية، كنت مستمعاً،
ولا بدّ من تسجيلك هذه السنة بشكل رسمي. أنت الآن في الصّف الأول.

- هل تعرف جدول الضرب؟

- نعم.

أغمضتُ عينيّ، وفتحتُ فمي:

واحد ضرب واحد يساوي واحد.

واحد ضرب اثنين يساوي اثنين.

واحد ضرب تلاتي يساوي تلاتي.

ابتسم أبي. نظر إلى الأعلى نحو عيادة الدكتور حسن مهوس، ثم قال:
سأفتح لك عيادة في مكان أجمل.

الأم

خيام سوداء بين كرسور وسهرمكة. بدو من الحسكة وتلّ براك وجبل
عبد العزيز.

شاي ودخان وحميس.

قطعان الغنم ورعاة وشمس الظهيرة الحارقة.

أطفال عراة مثلنا.

يومها عرفتُ

الأم لا حدود له ولا لغة ولا جغرافية أيضاً.

کردستان

الطريق إلى كردستان بعيد.

يا بنيّ، قالت جدّتي كوجري وهي تُمسك بيدي. حدود وجندبمة
وأسلاك شائكة وحقول ألغام. ولكنّ، في النهاية، أشجار توت قبل قلعة
ماردين، وثمة فارس نائم، وقربه امرأة جميلة، ممّ وُزِينُ

الطريق طويل، يا بنيّ، يبدأ من قلبك، وينتهي في قلب أراارات.

جبال

كلهم مَرَوَا

فوق جبالنا العالية

كلهم ذهبوا

وبقيت الجبال.

حكايات

تقترب سيارَة حسينو

تُسرع أُمِّي، وفي يدها سطل بلاستيكيّ. رائحة الجبنة الكردية تملأ المكان.

تأخّرت اليوم أيضاً.

تخاطب أُمِّي حسينو.

الذي يُشعل سيجارة من عقب سيجارته.

بطاريّة السيّارة كانت فارغة.

- انتظرتُ حتّى جاء حزنيكي لمساعدتي.

في السنة القادمة، سأشتري سيّارة جديدة.

ماذا تريدان من بقاليّة حاج خضر؟

- صابون، وعلبة سمّنة البقرة الحلوب.

تنطلق السيّارة نحو كفر سبي في طريقها إلى القامشلي.

حسينو وسيلة اتّصال القرية الوحيدة مع العالم الخارجي الذي هو القامشلي.

كردور تببع إدارياً لعامودا التي نزرها من وقت لآخر، لأمر يتعلق بالتجنيد أو بالسجل المدني أو مراجعة مدير الناحية.

يأتينا حسينو بالسَّكر والشاي والدخان وصابون الغار ودفاتر التلاميذ والرسائل، وهو يعرف تفاصيل حياتنا الصغيرة كلها:

مَنْ سيذهب للجيش، وَمَنْ سيأتي في إجازة العيد، وَمَنْ سيتزوج، وَمَنْ يُحِبُّ.

نجلس قرب حائط المدرسة. يحدثنا شمس الدين عن مغامراته في العسكرية، وعن العميد الذي صفعه حين شتمه، وبسببها أمضى سنة كاملة في سجن تدمر.

عن سميرة توفيق التي رأته في الشام، وقالت له: يا حلو.

نسمع صوت محرك سيارة حسينو، نركض إليها، تاركين شمس الدين وحيداً مع حكاياته التي لا تنتهي.

قصفُ

نظفتُ أمي باحةَ الدار من آثارِ القصفِ
وعلقتُ من جديد صورتي التي سقطتُ عن الحائطِ
ولكن رائحة البارود ظلَّتْ
تُذكرُ بالغائبين.

شارع

أستيقظ في الصباح الباكر

طريقي طويل إلى فرن أبو صباح. ضباب قليل وهواء بارد، ولكن، وما إن
أتجاوز البيوت الطينية قرب قبور السريان، ومن الطرف الآخر لنهر الجقجق،
أرى الجامع الكبير وكنيسة السريان.

أسرع قليلاً كيلاً أتأخر عن رائحة الخبز في صباحات القامشلي
التي أتذكرها بأمل وقلق أيضاً.

أبوابُ

ستعودون من الحرب منتصرين
ستكون المَدُن فارغة وأبواب المقابر مفتوحة
ولن ينتظركم أحد.

سيرة ذاتية

دَوِيّ محرّك سيّارة خرجت للتوّ من سوق العتاقجية (كراجات التصليح
وقطع السيّارات المستعملة)، أصوات الباعة في السوق قرب الجامع
الكبير.

الطريق إلى نصيبين

باصات الهلالية

تكسي الوحدة

مطعم الفرسان

مكتبة أنيس حتّاً مديوابة

مقهى كريس

سينما شهرزاد الصّيفيّ

جركين

الأسورية

شارع الكورنيش

مدرسة العروبة

محطة لازكين

بقاليّة الحاجّ خضر

ثياب المسيحيات في نهار الأحد، والكرديات في عيد النيروز

قدورك
كنيسة السريان
السيح بحرات
محطة الوقود، حيث يدخن إبراهيم حسو تحت ورقة كتب عليها "الرجاء
ممنوع التدخين"
المطار
الهلالية
مطحنة مانوك
أستاذ الرياضيات جميل نوري
مقهى بري
تسجيلات صلاح رسول وسوني
خبات لتصوير الحلقات والأعراس
عمو يوسف قرقوع
جامع قاسمو
حسينو زوج بديعة وغزالة
سيارات شيفروليه ٧٥
رصاصات الجنود الأتراك في صباحات نيسان
الصوامع
شرو بافي حمد والخنجر الكردي في يده
الكرخانة القديمة، قبل أن تستولي عليها صباحي
قبور السريان
محمقية

الزيتونية
سائقو الدراجات النارية
صور حافظ الأسد وعبد الله أوجلان

غادرتُ القامشلي رجلاً
وسأعود إليها طفلاً.

ماردين

في الصيف وأنا أستلقي على سريري في كرسور، ثمّة أضواء قريبة،
لدرجة كنتُ أظنُّ أنها خلف أشجار القرية تماماً.

ما هذه الأضواء، يا أبي؟

إنها قلعة ماردين.

إذاً، سنذهب إليها.

لا، يا بنيّ، ماردين بعيدة جداً.

بيننا وبينها جبال وأسلاك شائكة وجندمة أصابعهم على الزناد.

ولكنّ، سنصل إليها يوماً.

في النهار، تختفي القلعة وأنوارها، وأنتظر المساء بشُغف، كي أغمض
عينيّ، وأمضي إلى قلعتي في ماردين.

كاتربيلار

بيت طيني صغير. غرفة واحدة بُنيت على عجل في ليلة واحدة.. حملتُ أمي الأعراس: كاسات شاي وضحوناً وسريراً قديماً وصورة كبيرة لحافظ الأسد، اشتراها أبي من مكتبة الزهراء الملاصقة لتسجيلات بافي فلك (المغني الكردي المشهور محمد شيخو)، كيلا تُهدم شرطة البلدية البيتَ على رأسنا ورأس الأب القائد.

من هذا البيت إلى مدرسة عريستان، مرور يومٍ أمام شركة كاتربيلار، وعلى الواجهة التي تطلّ على طريق الحسكة اسم وكيل كاتربيلار في الجزيرة السوريّة وسوريا كلها (شركة م. عرت جلاذ وأولاده).

كان ذلك قبل أن تهجم تركتورات الفرات الوطنية الرديئة، على الأراضي الخصبة جداً في الجزيرة السوريّة، وقبل أن يترك الفقراء الأكراد أراضيهم بسبب موجة جفاف مرعبة من جراء سياسات النظام السياسيّة والاقتصادية، ليتحوّلوا إلى عمّال في مداجن ضباط الجيش في الساحل السوريّ أو مُشرّدين في شوارع دمشق وبيروت.

رثاء

كنتُ طفلاً صغيراً وسعيداً. قتلْتُ ألف عصفور. وخرَّبتُ أعشاشاً كثيرة، ورميتُ صغار العصافير لقطتي الجائعة التي تحبُّ لحم العصافير مثل أمي.

كان أبي يضرني وأمِّي ومعلِّم المدرسة وجارتنا أموكي. وكنتُ أخرب شقيقتي كثيراً.

كنتُ طفلاً صغيراً، أحبُّ الموسيقى. صنعتُ طنبورتي من علبه حلاوة فارغة، وغمَّيتُ (بوكي دلالي) لمعلِّمتي اللبناينة التي طلبتُ منِّي أن أتعلِّم أغنيات عصام رجي وسمير يزك وعازار حبيب. وقلتُ لها: تكْرُم عيونك مع غمرة.

بعد أسبوع، عزفتُ لها، وغمَّيتُ: سندلي، يا سندلي، بدِّي دوا إليها، وبدِّي دوا إلي.

لم تفهم المعلِّمة كلمة واحدة، وضحكتُ حتَّى وقعتُ على ظهرها، ورأيتُ نهدَيْها وما تحت التَّورة القصيرة جداً.

بيان

أنا شيركو. ضريتُ مروان ابن عمِّي عليّ الذي يكتب عني الآن، ألف مرة.
وسأضربه إذا عاد ثانية من هولندا، لكنه جبان، يخاف مني ومن المخابرات،
لذلك لن يعود أبداً.

سيموت هناك في أمستردام، وسأبكي عليه هنا في كرسور.

اليوم الرابع

شجرة لوز

قالوا:

خطفها من حضن زوجها من شدة حبه لها.

قالت امرأة أخرى:

تركته خطيبها، وركضت خلفه. كان جميلاً مثل شعاع في صباح بارد.

وقالوا: كان يحبها، وكانت تموت فيه، سارا معاً في الغابة البعيدة،

وتحوّلا إلى شجرة لوز، هرباً من نظرات الآخرين.

زهرة

اختبأت البنت خلف الشجرة تماماً
سكاكينهم كانت تلمع تحت ضوء القمر
وفي صباح اليوم التالي، وجدوا زهرة صغيرة نَبَتَتْ قرب جذع الشجرة
انهاالوا عليها بالطعنات.

خيانة

لم يقل شيئاً
لنافذتها المعلقة
وعدّ ذلك خيانة.

آمال

تحت هذه الأنقاض

آمالنا

سنبكي طويلاً قربها

ربما تنبت ثانية.

الأعداء

للطيّار أطفال وزوجة وبيت صغير

مثل البيت الذي قصفه قبل قليل

وحين يعود إلى البيت، سيُحدّث أطفاله عن الأعداء:

بيت وأطفال وشجرة.

حديد

الدَّبَابَةُ الَّتِي قَصَفْتُ هَذَا الْبَيْتَ

رَبَّمَا تَمَرَّ قَرْبَهُ بَعْدَ سِنَوَاتٍ

وَلَنْ تَتَذَكَّرَ شَيْئاً

تِلْكَ ذَاكِرَةُ الْحَدِيدِ.

جلیلة

عُرفَ رمزان بشُغفه بالرسم وبناء البيوت الطينية الجميلة، البيوت التي بناها في كرسور ونيف وعليّ فرو وكوتيا وشدي وبيرا بازن وقوشانه وكرباوي وقوتكي. تشهد له نوافذ وأبواب لا مثيل لها. غرف صغيرة للأطفال، وكبيرة للضيوف، ومخازن سرّية للتبغ المهربّ من كردستان تركيا .. فجأة ترك كل شيء الرسم والزخارف والأبواب والنوافذ والبيوت الصغيرة والكبيرة.

زعل من الهواء والأشجار والعصافير وأسراب القطا. لم يعد يراه أحد يخرج من بيته.

ذات مرّة، وفي الليل، أخذ زوجته الجميلة جليلة، وزرعها في قطعة أرضه الصغيرة بين عليّ فرو وكوتيا قال: أريدها أن تُزهر كأشجار الدّراق في جبال طوروس. أريدها أن تُظلل القرى بعطر جسدها، وأن تعطي الأرض دروساً خاصّة في الحبّ، وأن تُغني للعابرين الذين لا أحد ينتظرهم.

جندى

هناك أمٌ تنتظر هذا الجندي (وربمًا زوجة و بنت صغيرة و جميلة بصفائر
ملونة)، ولا تعرف أنه لن يعود أبدًا.

حبيبي كردستان

كنتُ أقول كل يوم أمام الجميع: حبيبي كردستان، وأنظر نحو جبال
طوروس البعيدة. ظنَّ الجميع أنني تحوَّلتُ إلى مناضل عظيم، وربما أُحرِّد
كردستان. وحدها بنت (كردستان) كانت تعرف أنني لا أقصد غيرها.

هواء

رائحة أصابعك على القميص

أترك باب الخزانة موارباً

وأغلق النوافذ والأبواب

الهواء خائن.

شال

شالكِ

الذي وجدتهُ مصادفةً في حقيبتِي

يُوَاسِي وَخَدَةَ ثِيَابِي.

حكاية

كانت الفأس شجرة صغيرة
لها أب وأم وأخت وجيران .

شوق

بيت طيني، شجرة توت، سيارة شيفروليه قديمة موديل ١٩٥٧، حصادة
جوندير خضراء، أضواء ماردين في الليل، دخان سيجارة أبي.

تركتُ ذلك كله ورائي

ومضيتُ.

اليوم الخامس

رواية

لا أعرف كيف التقينا، رغم أنني كنتُ أعدُّ اللقاء مجرد حلم أو خيال عابر. كان الوقت صباحاً، وحين اقتربتُ منها، غابت الشمس. جسدها يضيء في هذه العتمة.

قلتُ: سأكتب عن جسديك فصلاً كاملاً في روايتي الجديدة.

قالت: أرجوك، لا تُوغِل كثيراً في الوصف، كي لا تُعذِّب القراء.

أجاثا كريستي

وصلت أجاثا كريستي إلى كرصور قادمة من تلّ الرّمّان باتجاه القامشلي، حيث ينتظرها زوجها عالم الآثار ماكس مالوان لتناول الغداء على مائدة جرجس هدايا.

في طريقها إلى القامشلي، زارت تلّ فارس، وأشعلت شمعة في الكنيسة الصغيرة في دمخيا. تأخرت قليلاً، لكن الطعام كان ساخناً وشهيماً، وكان هناك كثير من نبيذ ماردین.

يقال إن العلاقة بين الروائية العظيمة وعالم الآثار الكبير توتّرت قليلاً، لأن جرجس هدايا كان يلبس بدلة بنّية وساعة رولكس، كما بطل روايتها "الرجل ذو البدلة البنيّة" الأمر الذي دفع ماكس مالوان إلى مغادرة القامشلي لأسباب غامضة، سنعرفها في رواية أخرى لها.

أبي

كان المزارعون الكبار يحبّون أبي الفقير، هؤلاء الذين يسكنون في بيوت
عالية وكبيرة في القامشلي وزوجاتهم جميلات ومثيرات في الليل.

ترتاح حصّاداتهم الجوندير وتركثوراتهم وشاحنات تويوتا وشيفروليه و
دوج قرب بيتنا الطينيّ الصغير مع اقتراب موسم الحصاد في الصيف.

صيف وقمح وأحلام كثيرة.

صيف وبحر ونساء بملابس شيفون رقيقة في اللاذقية وطرطوس وبيروت
وإسطنبول.

صيف ليس لنا منه نحن غير الشمس الحارقة والذباب وغبار السيّارات
التي تمضي مسرعة نحو القامشلي.

ديالكتيك

تعلمتُ من الماركسية أن الأغنياء يسرقون الفقراء. ولكن جازنا الغني
كان يحبنا جداً، ويشترى لنا أحياناً أشياء جديدة عدا الأحذية والثياب
القديمة التي كانت زوجته تعطيها لأمي كل شهر.

وكنتُ أفسر ذلك بأن الحرامي يعيد لنا قسماً مما سرقه منا، لدرجة
كنتُ أشعر أن سيارة مازدا ٦٢٦ التي اشتراها قبل شهر هي سيارة أبي،
وستعود لنا يوماً.

حُبّ

كنتُ أظنُّ أن التَّخَلُّصَ مِنَ الحُبِّ وَأثاره الجانبيّة سهل. يكفي أن تدير
ظهرها حتّى يدير قلبي ظهره أيضاً. لكن الحياة تحجّرت عند هذه اللحظة،
وتحجّرتُ في مكاني. ربّما تعود .. ربّما.

حين

حين تشردتُ في حلب بحثاً عن بيت صغير خلال دراستي الجامعية
حين وجدتُ بيتل بين أكراد كرداغ، وأكلتُ خبزهم وزيتونهم
حين عدتُ إلى القامشلي في حافلة ألمانية قديمة مزدحمة
بأهالي الجزيرة، أغنيّة مندل، يا كريم الغربي، دخان سجائر اللّف،
الشاي الثقيل

حين ركبتُ بيك آب حسينو، ورأيتُ بيوت القامشلي
حين وصلتُ إلى كرسور
حين عانقتُ أبي وأمي
حين حملتُ أختي الصغيرة آمد، وركضتُ بين حقول البطيخ الأحمر
حين حملتُ حقيبتني ثانية
حقيبتني الثقيلة
وتركتُ صورتني بين أمي وأبي وإخوتي على جدار البيت الطيّب
ولم أجدِ الطريق

الأهل

الذين لا يغسلون أسنانهم أبداً
ولا يعرفون منتجات السنسودين
الذين يأكلون من صحن واحد
وإشربون الشاي في الصيف تحت شمس آب
وَيُدخّنون بشراهة أنواع السجائر كلها
الذين ينامون في ثيابهم
حين يتعبون
سعادتهم قدوم ضيف
أو رسالة من جندي لهم
في حرب، ليست حريهم

طفل

أُحِبُّ البيوت الطَّيْنِيَّةَ والوحل والمطر، والطُّرُق التَّرابِيَّةَ وسيارات
الشيفروليه القديمة وأصوات الرعاة وقطعان الغنم وعواء الذئاب.

أُحِبُّ الذين ينتظرون في محطات القطارات وأمام الهجرة والجوازات
وعند حيطان المستشفى الوطني وأمام شعبة تجنيد عامودا.

أُحِبُّ أكياس النايلون التي تطير في شوارع القامشلي.

أُحِبُّ ذلك الطفل الصغير الذي ركض في شوارع كرصور كثيراً، ونام
في حضن أمه، وحين استيقظ، وجد نفسه وحيداً وكبيراً في أمستردام.

صرخة

لأن صرختي لن تصل، ستعود إلى حنجرتي.

الغريب

حين أضع حقيبتني على الأرض، وأسند ظهري إلى جدار بيتنا الطيني
في كرسور، سأعرف أنني وصلتُ
قبل ذلك، سأبقى غريباً في بلاد الآخرين.

موسيقى

في أمستردام، استمعتُ إلى الموسيقى كثيراً، من شهرزاد كورساكوف
إلى باخ وبيتهوفن ومايكل جاكسون وميريام فارس.

لكنها لم تكن الموسيقى التي أبحث عنها.

أنا القادم من القامشلي مروراً بالحسكة والرقة ودير الزور وحلب وصحراء
تدمر في طريقي إلى أوروبا.

أريد الآن أن أستلقي على ضفاف الخابور، أمامي كأس الشاي الثقيل،
وبين أصابعي سيجارة حمراء طويلة، وقرب رأسي مسجلة سانيو مستمتعاً
بـ"مندل، يا كريم الغربي".

ميرفت أمين

كان على الصَّبِيِّ الكرديِّ الذي رأى ميرفت أمين للمرة الأولى في "نغم في حياتي" ورقصتها المجنونة أن يركض من مكتبة إلى أخرى بحثاً عن صورها بين صفحات المجلات الفنِّية: الشبكة، الموعد، سمر، ليالي. يقصّها بعناية وهدوء، كي لا تتألّم، ويلصقها فوق سريره في غرفته الطينية الصغيرة في قدوريك.

لم يكن الوحيد في العائلة الذي وقع في حُبِّ نجمة، لا نراها إلا في سينما شهرزاد الصَّيفيِّ، عمّه جميلو كان عاشقاً لسميرة توفيق وشامتها وغمرتها وضحكها وفستانها المزركش الطويل، واكتنازها.

وجدّه نايفكو كان مغرماً بصباح حتّى إن شرو زعيم العتّالين في قدوريك الذي زار بيروت لمرة واحدة يُقسم بشرفه أنه رأى صباح قرب صخرة الروشة تمشي مع نايفكو ويده على خصرها.



فهرس المحتويات

١١	اليوم الأول.....
١٣	كردستان دير الزور.....
١٧	نيروز.....
١٨	علم.....
١٩	مدير الناحية.....
٢٠	الأب القائد.....
٢١	تمثال خائف.....
٢٣	الحمار.....
٢٥	محمد منصوره و"كردستان الصومال".....
٢٨	لينين.....
٢٩	علكة كردستان.....
٣٢	عروبة.....
٣٣	اليوم الثاني: شيركو.....
٣٥	١-.....
٣٧	٢-.....
٣٩	٣-.....
٤٠	٤-.....
٤٢	٥-.....

٤٣ ٦-

٤٤ ٧-

اليوم الثالث: كرسور وضواحيها..... ٤٥

٤٧ المعجزة

٤٩ دجاجة متوقفة تنظر إليّ

٥٠ قدورك

٥٢ اشتراكية

٥٣ القامشلي

٥٤ حلب

٥٥ كرسور

٥٦ المعنيّ

٥٧ صورة شخصية

٥٩ الأكم

٦٠ كردستان

٦١ جبال

٦٢ حكايات

٦٤ قصف

٦٥ شارع

٦٦ أبواب

٦٧ سيرة ذاتية

٧٠ ماردين

٧١ كاتربيلار

٧٢ رثاء

٧٣ بيان

اليوم الرابع ٧٥

٧٧ شجرة لوز

٧٨ زهرة

٧٩ خيانة

٨٠ آمال

٨١ الأعداء

٨٢ حديد

٨٣ جليلة

٨٤ جندي

٨٥ كردستان

٨٦ هواء

٨٧ شال

٨٨ حكاية

٨٩ شوق

اليوم الخامس ٩١

٩٣ رواية

٩٤ أجاثا كريستي

٩٥ أبي

٩٦ دياكتيك

٩٧ حُبّ

٩٨ حين

٩٩ الأهل

١٠٠ طفل

- ١٠١..... صرخة
١٠٢..... الغريب
١٠٣..... موسيقى
١٠٤..... ميرفت أمين